جامعة بجاية

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

السنة الثانية/أدب ولغة الاستاذ: خيار نورالدين

مقياس: المدارس اللسانية.

المحاضرة الثانية: المدرسة الوظيفية – نموذج اندري مارتيني –

1. مقدِّمة

إنّ اسم **الوظيفيين** يُطلَق على مجموعة من اللّسانيين، ويأتي في مقدّمة روّادهم **أندري مارتيني** (André Martinet)؛ وإذا كانت حلقة براغ قامت ـ كما رأينا ـ بفصل الصوتيات الوظيفية (Phonologie) عن الصوتيات (Phonétique)، فإنّ **أندري مارتيني** ساهم مساهمة فعّالة في إزالة هذا الفصل. وعدّ الفنولوجيا نوعاً من الفونتيك الوظيفية كما سمّاها في إحدى كتبه المبكِّرة. ولم يمنعه تأثيره بهذه المدرسة أن يكون من المنظِّرين البّاقين في ميدان الصوتيات الوظيفية التعاقبية (Phonologie diachronique). ويهدف مارتيني من وراء نظريته هذه إلى تفسير تطوّر اللّغة، باستعمال مصطلحات بسيطة لا غموض فيها.

2-المؤلِّف والمؤلَّف:

أندري مارتيني (1908 ـ 1999) لساني فرنسي ولد بمقاطعة السافوا بفرنسا وهو تلميذ **أنطوان مايي** (Antoine Meillet) درس عليه في باريس، كما تابع دروساً في اللّسانيات لكلٍّ من **موسِي** (Mossé) **وفَنْدرَيْس** (Vendryes)؛ نال شهادة الدكتوراه في دراسة اللّغات الجرمانية سنة 1937. ومن 1932 إلى 1938 كانت له اتصالات مكثفة مع علماء **حلقة براغ** اللّغويّة وبخاصة مع **تروبيتسكوي**، كما شارك في أعمال هذه الحلقة التي كانت تذيع أعمالها بانتظام. وتأثّر كذلك بأعمال **حلقة كوبنهاجن** إذ كان يتابع عن كثب تطور نظرية النسقية (Glossématique) بفضل الإقامات المتكرِّرة بالدانمارك وأواصر الصداقة التي كانت تربطه باللّساني **يلمسلاف** من 1946 حتى 1955.

وقد سبق له أن كان مديراً للدراسات الفنولوجية بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا في عام 1938، وفي الحرب العالمية الثانية ألقي عليه القبض وأودع السجن، فاغتنم الفرصة هناك، وألّف كتاباً قيّماً بعنوان نطق **الفرنسية المعاصِرة** معتمِداً في ذلك على أربعمائة راوية.

ثمّ استقرّ شيئًا ما بالولايات المتحدة الأمريكية حيث التفت أيضاً إلى المناهج الوصفية والوظيفيّة التي جادت بها المدرسة السلوكيّة الأمريكيّة بزعامة **بلومفيلد** وشغل منصب الأستاذ الجامعي بجامعة كولومبيا من 1947 إلى 1955 وكان حينئذ رئيساً لقسم اللّسانيات؛ ومن ثمّ عاد إلى مدرسة الدراسات العليا عام 1955، ثمّ التحق بجامعة السوربون بباريس ومكث يلقي الدروسَ من 1956 إلى 1978؛ تدور أهمّ أعماله (المقالات والكتب) حول الصوتيات الوظيفيّة (الفنولوجيا) فصدر عنه في هذا المجال: ***Économie des changements*** **(*phonétiques*, 1955)** وعلم التركيب حيث صدر عنه: ***Éléments de linguistique*** **(*générale*, 1960 ; *la Grammaire fonctionnelle du langage*, 1979 ; *Syntaxe générale*, 1985).**

ألّف *أندري مارتني* كتاباً سمّاه مبادئ اللسانيات العامة؛ يتناول الكتابُ موضوع اللّسانيات العامّة باعتبارها علمًا يدرس اللُّغة البشريّة عامّة، ويرمي إلى جمع أكبر عددٍ ممكن من الخصائص التي تميّز هذه اللُّغة، لِكيْ يُبيّن وظيفيّتَها. لهذا ما انفك يستحضِر أمثلةً عدّةً لا تقتصِر على لُغة واحِدة، بل يُقارِن أحيانًا بيْن اللّغات ويستنتج الفروق التي قد يفسِّرها أو يُرجِئ أمرَ تفسيرها أو ينبّه إلى ضرورة عدم تجاهل قضيّة معينة امتازت بها لغةٌ دون أخرى. فعمله يدخل في إطار اللِّسانيّات العامّة الهادفة إلى تفسير قضايا اللُّغة باعتبارها أداة تبليغ، وكيفية اشتغالها، خاصّةً على المستويَيْن الصّوتيّ والتّركيبيّ.

3- اهمّ افكار اندري مارتيني اللسانية:

- **التقطيع المزدوج:**

قبل التطرّق لهذا المفهوم نبحث في الخلفيّة المعرفيّة التي ولّدته واتّكأ عليها **أندري مارتيني** في صياغته أحسن صياغة، وتكمن مقدّمات هذا المفهوم في كثيرٍ من المبادئ التي أرساها **دي سوسير**، وكأنّما راعى **أندري مارتيني** الأواصر الرابطة بينها فوضعها في شبكة وجاء بنظريّته حول **التقطيع المزدوج (La double articulation)** وهي:

- نظاميّة اللّغة
- الخلافات والعلاقات
- خطيّة الدال
- المحور التّركيبيّ
- المحور الاستِبداليّ
- الطّابع التّفاضُليّ لِوحدات اللُّغة

- التّقابُلات المِمكِنة والممكِّنة لاستبدال الأصوات بعضها بالبعض، أي التّقطيع والتّعويض ضمن جداول تقابليّة (وهو إجراء نبغ فيه محلِّلو **حلقة براغ**).

من المتّفَق عليه أنّ اللُّغة نِظامٌ مِن الأدلّة والعلاقات، أيّ لا تتواجد وحداتُها إلاّ في نِطاق العِلاقات الّتي تربِطها بِغيرها مِن الوحدات التّابِعة لِنفس النّظام، ولا تتحدّد إلاّ بِاعتِبار **وظيفتها** ضِمن المجموع.

ويُمكِن الرُّجوعُ أوّلاً إلى ما صرَّح بِه **دي سوسير** وفي هذا الصّدد يقول:

«وهكذا فإنّ كلّ شيء في حالة لُغويّةٍ ما إنّما يَقوم على العِلاقات» وقد ذهبَ ***سوسير*** إلى أنَّ الأَصوات، أو الصُوَّر المِكتوبة، والمعاني في لُغة ما، لا توجد إلاَّ مِن العِلاقات القائِمة بَينَ بعضِها وبعض. إنَّها تَنتمي إلى نِظامٍ مِن العِلاقات؛ ولا وجود قبلَ هذا النِّظام، لا لِلأَصوات ولا لِلمعاني؛ فَهي إنَّما تَصدُر عن هذا النِّظام. ولِكي يُبيّن ***سوسير*** أنَّ المعاني لا توجد قبلَ أن يوجد النِّظام في لُغةٍ بِعيْنِها، فَقد اتَّجه إلى ظاهِرة تَعدُّد اللُّغات. غير أنّه ـ ونحن نتوجّه إلى خاصية التقطيع المزدوج ـ لكلِّ لغة طريقتها في تقطيع الواقع، وهذا المفهوم محوري عند الوظيفيين.

ويُؤَكِّد **دي سوسير** أيضاً أنّ تِلك الوحدات تنتظِم عبر نوعيْن مِن العِلاقات قائلاً:

«إنّ العِلاقات والاختِلافات القائمة بين عناصر اللُّغة تدور في نِطاق دائرتيْن مُتميّزتيْن تُولِّد كلٌّ واحِدة مِنهما نوعًا مُعيّنًا مِن القيم. وإنّ التّقابُل بين هذيْن النّوعيْن يزيد في تبيان طبيعة كلِّ منهما»، ويتولّى أمر الدائرتين محوران هما:

- **المحور التّركيبيّ:**

علاقات تنجم عن توظيف الوحدات بِمُراعاة تسلسُلها في مدرج الكلام. فتأتي التّركيبات القائمة على عُنصُرين فأكثر والممكِن إنشاؤُها في ترتيب مُعيّن سيفقِد التّركيبُ مَعناه وقيمتُه إذا اختلّ ترتيبه (نِظامُه) وقد يكتسِب ذلِك التّركيب جرّاءَ ذلِك التّغيير قيمة أخرى. ويتحكّم فيه كلٌّ مِن خاصيّة **الخطيّة** الّتي تتميّز بِها اللُّغة وكذا **التّقطيع المُزدوج**.

- **المحور الاستِبداليّ:**

إنّ المجموعات الّتي تتكوّن عن طريق الرّبط بيْن عناصِرها ذهنيًّا لا يقتصر فيها الإنسانُ على التّقريب بين العناصِر الّتي تشترِك في بعض الخصائص، بل يُدرِك الذِّهنُ بِالإضافة إلى ذلِك طبيعةَ العِلاقات الّتي تربِط بينها في كلِّ حالة مِن الحالات فيُنشِئ بِذلِك عددًا مِن السّلاسِل التّرابطيّة يُوافِق عددًا مِن العلاقات المختلِفة. ويُمثِّل العلاقات الّتي ترتبِط عبرها الكلِمات بعضها بِالبعض في ذِهن المتكلِّم وبِاستِحضارِها عن طريق الذّاكِرة.

- **الطّابع التّفاضُليّ لِوحدات اللُّغة:**

يتمّ وفق هذا الطابع تمييز أيّ وحدة لُغويّة وتحديد وظيفتها في السّياق اللّغويّ بِما تختلِف عن غيرها داخِل نِظامٍ واحِد. وذلِك وِفق الصِيغة الآتية: لكي يتحقّق **س** يُكتفى بـ س −1. فمثلاً وحدة /دار/ تختلِف عن وِحدة /سار/

باختِلاف فونيم /س/ عن فونيم /د/. ويحدث جرد الوحدات الصّوتيّة لأيّ لُغة باستِعمال **التّقابُلات** المُمكِنة واستبدال الأصوات بعضها للعض. فالكلِمتان السّابِقتان قوبِلتا باستِعمال **التّقطيع** و**التّعويض** ضمن جداول **تقابليّة**.

فهكذا بعدما عرضنا المفاهيم التي يقوم عليها التقطيع المزدوج، يمكن تعريفه بالقول إنّه عبارة عن تحليل أيّ مدوّنة لغويّة (Corpus) إلى **وحدات دالّة** (Monème) . هنا التقطيع الأوّلي . هي قابِلة للتّحليل بِدورِها إلى أصواتٍ ذات **خصائص تمييزيّة مَحصورة** وهي **وحدة صوتيّة** (Phonème) . وهنا التقطيع الثّانوي . ويتمُّ ضبط هذه الوحدة المحدودة بِتوزيعها في **مدرج الكلام** حيث يتعيّن بِفضلِ تقابُلها مع بعضها البعض ضِمن مَجموعاتٍ ذات خواصٍ مُشتركة إلى حدٍّ ما. فهما فكرة العلاقات والاختلافات (Différences).

نظرًا لخاصية التقطيع المزدوج للّغة هذه فمن شأنها أن تحقّق ما أسماه الوظيفيون **الاقتصاد اللّغويّ**، ويُعدّ **أندري مارتيني** أشهر مَن أفصح عن تلك الخاصية وبِشهادة **جورج مونان** (Georges Mounin)، الّذي يعتبِر الطّابِع ذاتَه «الصّفة الّتي يَبدو أنّها تُميّز نوعيًّا اللُّغات البشريّة عن جميع أنظِمة الإبلاغ الأخرى». فقبل تطرّق المؤلّف إلى معالجة ظاهرة **الاقتصاد اللغوي** في عنصر التقطيع المزدوج واقتصاد اللغة، سبق له وأن أورد مصطلح **économie** مرتين وذلك عند عنصر: التقطيع المزدوج للغة.

- **الشكل والوظيفة:**

وإذا رجعنا إلى حرص الوظيفية المارتينية على الشكل رغم تغليبها الميل إلى الوظيفة والسياق، ونأخذ على سبيل المثال كيفية معالجتها لأحد مكوّنيْ الدّليل اللّغوي . إذا أبقينا على طابعه الازدواجي الذي رصده **دي سوسير** . وهو **الدال** (Signifiant)، علماً أنّه المصطلح الّذي عوّض به **دي سوسير** تسمية **الصّورة السّمعيّة أو الأكوستيكيّة**، نجده لدى هذه المدرسة التي تنطلِق دائماً من مدوّنة نصية (Corpus) من أجل ضبطه ذلك الكيان الذي تتكوّن مِنه اللُّغة (المدوّنة) . بِاعتِبارها أوّلاً وقبل كلّ شيء **سِلسلة مِن الأصوات** . يُمكِن تَحليلُها إلى **وحدات دالّة** يسميها **المونيمات** قابِلة للتّحليل بِدورِها إلى أصواتٍ ذات **خصائص تمييزيّة مَحصورة** يسميها **الفونيمات**. ويتمُّ ضبطُه بِتوزيعه في **مدرج الكلام** حيث يتعيّن بِفضلِ تقابُله مع غيره مِن الدّوال ضِمن مَجموعاتٍ ذات خواصٍ مُشتركة إلى حدٍّ ما. قد تُمثّله كلمةٍ واحدةٍ بِغضّ النّظر عمّا يكتنِفُها مِن الزّوائد الصّرفية الدّلالية التي تُسهِم في صيّاغتها صيّاغةً صرفيّةً نحويّة بواسِطة الاشتقاق والنّحت وتدلّ على شيءٍ مِن معناه. وهو ما يُمثّله بِشكلٍ عامٍّ مُصطلح (مونيم) في النّظريّة الوظيفيّة نفسها.

أ–المونيم: هو ما ينتج عن التقطيع المزدوج على المستوى الأوّل. ويمكن تجزيئُه حسب النّحو الوظيفيّ إلى وحدتيْن:

1. الوحدة المعجميّة ***(Lexème)***: هو ما يتغيّر بتوزيع الكلمة على المحور الاستبدالي إذا أردنا أن نحصُل على قيمةٍ مُتميّزة (معنى آخَر)، اللّهمّ إلاّ إذا شئنا التّنويعُ حيث يُحتَفظ على المِعنى ذاتِه على الرّغم مِن تبدّل هذه الوِحدة. قد يكون ذلِك تحقيقًا لِلوظيفة الأسلوبيّة أو الجماليّة.

2. الوحدة الصّرفية النّحوية ***(Morphème)***: هو ما يتغيّر بتوزيع الكلمة على المحور التّركيبيّ.

فمثلاً مصطلح: (**تابع**) هو مصطلح بسيط لأنه يتكوّن من مونيم واحدٍ وصِيغَ صيّاغةً بسيطةً. ففي توظيفه في سيّاقٍ معيّنٍ يستتبِع ظُهورَ الدّلالتين اللّتيْن يحتويهما، وهما:

- التّبعية (مَفهومٌ لِسانيٌّ لَه جُذوره في تاريخ اللِّسانيّات).
- الفاعلية التي أدّتها صيغة (الوحدة الصّرفية النحوية) ⟵ " اسم فاعل ".

فالخاصية الصّوتيّة لِهذا الطّرف تجعله أسهل تناوُلاً بِمُقارنته مع قرينه أي (المدلول).

ب–مفهوم علم التّركيب عند مارتيني:

يقيّد الوظيفيون هذا الفرع اللِّساني بوصفِه **التحليل الوظيفي التركيبي**، يحدِّد **مارتيني** الجملة بأنها كلّ عبارة ترتبط جميع وحداتها بمسند وحيد أو بمسندات مترابطة. وهو ينطلِق في تحليلها من تقسيم وحداتها إلى أصنافٍ من المونيمات والتركيبات (مركّبات) منها ما يمثّل نواة الجملة وهو التركيب الإسنادي ومنها ما يمثل ملحقاً لها (وهو المفهوم الذي يقابل الفضلة في النحو العربي) ففي قولنا " يفرح الأطفال بيوم العيد " تحلَّل الجملة تحليلا ابتدائياً إلى تركيب إسنادي هو: عبارة " يفرح الأطفال" وإلى إلحاق هو: عبارة " بيوم العيد ".

وللتمكين لهذا التحليل الذي يعتمد ما يدعى مدرج الكلام، وعلى أكمل وجهٍ يجب أن يتعرّف المحلِّل بوضوحٍ على أنواع الوحدات التركيبية المختلِفة التي تكتسي أشكالاً مختلفة.

مراجع المحاضرة

1–أندري مارتيني، مبادئ اللسانيات العامة، ترجمة أحمد الحمو، بإشراف عبد الرحمان الحاج صالح وفهد عكام، المطبعة الجديدة، دمشق، 1984- 1985.

2–Christian Baylon et Paul Fabre، Initiation à la linguistique (Avec des travaux pratiques d'application et leurs corrigés), Coll. Fac. Linguistique, Ed. Nathan, Paris, 1990.

3-دي سوسير، دروس في الألسنيَّة العامَّة، تَرجمة مُحمد الشاوش ومُحمد عجينة بِإشراف صالح القرمادي، الدَّار العربيَّة لِلكتاب، 1985.

4-جورج مونان: مفاتيح الألسنيّة، ترجمة الطّيب البكّوش، منشورات الجديد، تونس، 1981، ص.54.